صحبة العبقرية

للأستاذ خليفة التونسي

مجال العبقرية « الخالقة » هي السريرة الإنسانية

فالعبقرية إنما تتوجه برسالتها واعية وغير واعية إلى هذه السريرة التي لا مجال لها تعمل فيه عملها سواها ، وهي تمدى بإيمانها من يقدر له الاتصال بها « شخصيا » « من المستعدين » لتقبل فيوضها ، والتشبع بها إلى درجة الامتلاء

ويبلغ من تأثير هذه « العدوى » أن تستجيش في سريرة المستعد لها كل بواعث الحياة والوعي والشعور بالواجب حتى ليبدو بعدئذ كأنه قد خلق في « صحبتها » خلقا جديدا ، ويبلغ من تأثيرها أن ترفعه حتى يبلغ مرتبة « الاجتهاد » في رسالة العبقري ، بل في غيرها من وجوه النشاط البشري ، حتى يظهر كأنه هو أيضا « ملهم » كالعبقري ، وذو رسالة كرسالته

وهذه ظاهره تلازم كل عبقرية « خالقة » في الوجود ، من خلال صلاتها بأتباعها الذين « صحبوها »

وقد أشرنا إلى هذه الملاحظة في مقال سابق نشر بهذه المجلة « الرسالة ٨٨٣ » عنوانه « مجال العبقرية » ، وضربنا هناك مثلا لهذه الظاهرة حواريي السيد المسيح الذين « صحبوه » في حياته التبشيرية القصيرة ثم استطاعوا أن ينهضوا بحمل رسالته من بعده ، وما كانوا أولا غير طائفة من صيادي السمك وأشباههم سذاجة وعامية ، ومع ذلك استطاعوا أن يثبتوا في الجدل والكفاح لأساطين كهنة اليهود وأحبارهم « الذين كانوا قد فقهوا حق الفقه صفوة الثقافات الدينية والعلمية والفلسفية التي كانت معروفة في عهدهم ، وانتصروا عليهم حتى في تفسير الشريعة الموسوية التي هم كهنتها وأحبارها ، وكانوا إذا خطبوا أو تحدثوا — وهم العوام — نطقوا بالبيان الساحر الذي يزلزل القلوب ويهز العقول ، فلا تملك حيال بلاغته العارمة ما يدفعها ، فإما أن تؤمن بها ، وإما أن تنحرف عن طريق سيلها الغامر » كما مثلنا لهذه الظاهرة أيضا ببعض صحابة النبي الأقربين ، وفيهم باري النبال والجزار والحداد

ليسير في الآفاق سيرة رأفة ويسوسها بسكينة ووقار
فالصين منظوم بأندلس إلى حيطان رومية فتلك ذمار
ولقد علمت بأن ذلك معصم ما كنت تتركه بغير سوار !

ويختتم أبو تمام قصيدته بهذا المقطع الذي يرتقي به إلى أعلى ذروة المديح ، ويسجل لبني العباس — بل لآل هاشم جميعا — مجدي الدين والدنيا ، وعزتي النبوة والخلافة ، وليس فوق هذين غاية تطلب ولا مقصد يرام :

فالأرض دار « أقفرت مالم يكن من هاشم رب لتلك الدار
سور القران الغر فيكم أنزلت ولكم تصاغ محاسن الأشعار

* * *

وبعد ، فهذا أبو تمام (الشاعر) عرضناه في قصيدة واحدة من قصائده . ونحن نرجو أن نكون قد جلونا للقارئ صفحة من روعة فنه ، وعبقرية شعره ، وتحميح خياله ، وتألق ديباجته ، وأريناه إياه محلقا في سماء القريض الفذ إلى الغاية التي يقصر دونها كل شاعر .

أما أبو تمام (الحكيم) ، أبو تمام المفكر الفيلسوف ، فذلك إنسان نسامع به أهل الأدب جميعا — وإن كنا نشك في أنهم عرفوه حق معرفته — منذ ما أومأ إلى هذه الحقيقة أبو العلاء في عبارته المقتضبة المأثورة : المتنبي وأبو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحتري !

(تم البحث)

محمود عزت عرفة
المدرس بعلمات شبرا

مصادر البحث وفق أقدميتها : —

١ — ديوان أبي تمام
٢ — تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري
٣ — أخبار أبي تمام لأبي بكر الصولي
٤ — مروج الذهب للمسعودي
٥ — الأمالي لأبي علي القالي
٦ — الموازنة بين الطائيين للآمدي
٧ — زهر الآداب للحصري القيرواني
٧ — معجم البلدان لياقوت الحموي
٩ — الكامل لابن الأثير الجزري
١٠ — الفخري لابن طباطبا
١١ — البداية والنهاية لأبي الفداء
١٢ — النجوم الزاهرة لأبي المحاسن
١٣ — معاهد التنصيص للعباسي
١٤ — هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام للبديعي الموصلي
١٥ — المواهب الفتحية للشيخ حمزة فتح الله

وراءهن الفم والعبد المسخر المستضعف ، وقد بلغوا ما بلغوا من الاقتدار والأستاذية في التشريع ، والحكم ، والنصح للخلفاء وعامة المسلمين ، وتمكين المزاهز التي نجمت أمامهم من كل أفق ، فأبلوا فيها كأعظم ما ينبغي البلاء ، مع أنهم كانوا « رواد » مجاهل لا عهد لهم بمثلها ، ولم تكن لديهم سوابق كافية يستأنسون بها في توسم تلك المشكلات الضخمة الكثيرة ، وفي الطب لها

وإذا صحت هذه الملاحظة تكشف لنا مدى ما تفقده العبقرية المادية على « صحابتها » المستمدين لها من فضل في تصفية سرائرهم ، وتصحيح ضمائرهم وأذواقهم وعقولهم ، كي يتوجه كل منهم الاتجاه الذي ينبغي له في الحياة حيثما يتيسر له ، وحيثما يتيسر ، وهذا الاتجاه لا يظهر إلا متى نضجت ملكات « الصاحب » وتهيأ لها المجال الذي يناسبها ، فتتمرس فيه بالتجارب التي تثير دفائنها ، وتشحذها وتصقلها ، وقد يتأخر ظهور اتجاه « الصاحب » إما لعدم تمام نضوج ملكاته ، وإما لأن المجال المناسب لها لم يتهيأ لها

والمجالات الكثيرة المتنوعة التي تناسب كل « أصحاب » العبقري قد لا تتهيأ له ولهم غالبا في حياته ، كي يوجه فيها أصحابه ، بل تتهيأ بعد ذهابه على يد « أصحابه » أنفسهم إذا كتب لمبدئه الاستمرار بعده ، وظلوا معتصمين به

والعبقرية تستعمل أصحابها على طريقتين نستطيع أن نصطلح على تسميتهما بالطريقة « الكمية » أو « الجمية » أو « الكتلية » والطريقة « الكيفية » أو « الفردية » أو « الذرية »

ونعني بالأولى الطريقة العادية التي تسخر بها الجماعات العامية في الحياة اليومية ، فترى الفرد في الجماعة العامة — مهما يكن ممتازا — لا يعدو أن يكون « رقما » صغيرا ضمن عملية جمع حسابية كبيرة أو صغيرة ، وهذه الطريقة لا يمكن أن تظهر « كل امتياز » الفرد إذا كان ممتازا

وإنما يلجأ العبقري إلى استعمال أصحابه على هذه الطريقة إذا ضاق أمامه أو توحد المجال الذي يوجههم فيه ، ولم تتح له المجالات المتعددة المتنوعة ليختار لكل صاحب منهم المجال الذي يناسب كفايته . فاستعمالهم على هذه الطريقة المسرفة التي يبتذلون فيها أية فقر من المجالات ، ولا مسوغ لهذا الإسراف وهذا الابتذال إلا الضرورة ، و « من اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » .

وموقف العبقري في هذا الحرج يذكرني بالقصة الآتية :

أرسلني أبي — وأنا غلام — إلى حقل لنا ، لأشرف على أجراء يعملون لنا فيه ، ولمحت هناك فلاحا كنت أعرفه ميسور الحال ، وكان هو صاحب الحقل المجاور لحقلنا ، وعجبت له إذ كان يلبس جبة وقباء أثناء عمله في حقله ، والمقام مقام ابتذال لا تناسبه هذه البزة القيمة ، بل يناسبه لبس جلباب أو نحوه ، قلت إلى شيخ كان يقوم بخدمتنا خاصة — وكنت أعجب بمثله ودعته — وهمست في أذنه : « ألا ترى ياعم جارنا فلانا وما يلبس ، يالإسرافه وكبريائه ! » وما أسرع أن همس الشيخ الأريب في أذني : « لا إسراف يابني ولا كبرياء ، بل هو الفقر » فكان عجبي لقوله أشد من عجبي لما يلبس جارنا ، فسألته دهشا : « وكيف ياعم » فأجابني مبادرا : « لو كان فلان — يعني جارنا — يملك جلبابا صالحا يبتذله في الحقل للبسه ، أفكان يظل قعيد بيته ويترك العمل في حقله ، أم يخرج إليه عريان ، أم يلبس ثوبا ممزقا قد يجده ولكنه يفضحه ، إن هذا كله غير ممكن ، فلم يبق أمامه صالحا له إلا جبته وقباؤه فابتذلهما توقيا للزوم البيت وإهمال الحقل والفضيحة أمام الناس في الخروج ، ولكنه مع هذا الزي واقع في فضيحة لا يفهمها إلا قليل ، وشر أهون من شر » وأبى الشيخ — رحمه الله وغفر له — إلا أن يدل بمعرفته على الغلام المتزعا وعى على أيدي معلميه وأبيه ، وبما درس من كتب كان يعكف على قراءتها عكوف الوثني المخلص على وثنه ، وأبى إلا أن يصدم غروره وما كان بالمغرور ، فعقب على ذلك بقوله : « أفهمت أيها التلميذ النجيب ؟ هذا علم ليس من الكتب يابني » فأجاب الغلام « فهمت ياعم ، وصدقت فما تغني الكتب عن تجارب مثلك » وشغلته فراسة الشيخ عن الوقوف عند تبكيته وإدلاله ، وكانت هذه الملاحظة من أول ما شكك الوثني في وثنه ، وزعزع إيمانه به

والحق أنها ملاحظة صادقة تنطبق على جارنا الفلاح كما تنطبق على كل عبقري صاحب مذهب إصلاحي جديد حين يبتذل أصحابه فيستعملهم فيما هو دون كفايتهم وفضلهم مضطرا ، إذ لا تتوفر الأعمال المناسبة لكل كفاية وفضل

ونحن نشير إلى هذا السبب لأنه أكثر شيوعا في حداثة الدعوة عند الضرورة ، ولسنا غافلين عن غيره من الأسباب ، فمثلا قد يحول العبقري مختاراً كمكره بين ممتاز من أصحابه والعمل الذي يناسبه ، لأن إسناده إليه غير مأمون العواقب عليه وعلى العمل معا ، إذ لا يزال العبقري غير واثق كل الثقة من القوى الكابحة في نفس صاحبه ، ولا أمان لامتياز الممتاز إلا بهذه الكوابح الذاتية التي تحول بينه وبين الطغيان . فلو ضعف وطغى الممتاز لأفسده طغيانه وقد يفسد معه غيره ، ولا احتمال لذلك والمذهب لم يستقر في السرائر كل الاستقرار ، وهناك أسباب غير ذلك سنشير إلى بعضها بعد حين

والطريقة الثانية هي الطريقة التي يرعى فيها امتياز كل ممتاز أو خصائص كل ذي اختصاص ، وتوجيهه الوجهة التي تلائم اختصاصه ، فيسند إليه العمل الذي يستجيش ملكاته ويجليها ويصقلها ، ويحفظ عليه ثقته بمبدإه حتى تبدو شخصيته على أوضح ما يمكن أن تكون . فما من قوة ولا استعداد في الإنسان قد خلقه الله عبثا ، بل خلقه لوظيفة في الكون ، فكل مواهبه إنسانية لها مجال نشاط في الحياة يقابلها ، فإذا أطلقت فيه وتمرست بتجاربه تفتحت ونضجت وازدهرت

ومجالات النشاط في الحياة متعددة ، والمهم أنها — مع تعددها — متنوعة ، فكل مجال منها يختلف قليلا أو كثيرا عن المجالات الأخرى ، فالكفاية التي يحتاج إليها تختلف قليلا أو كثيرا عن الكفاية التي يحتاج إليها غيره من المجالات

والسير على هذه الطريقة هو السير العادل الذي يعطي فيه كل ذي حق حقه ، ويضمه حيث تضمه كفايته ، فيتاح لكل « ممتاز » المجال الذي يزدهر فيه « امتيازه » ويترك غير الممتاز في دركه الخامل حيث يمسكه قصوره الذاتي متخلفا عن الممتازين دون خطإ أو إجحاف

غير أن السير على هذه الطريقة — مع عدله — ليس ميسورا للعبقري في كل أحواله ولا سيما في أول ظهوره ، وقد ألمعنا منذ سطور إلى أهم الأسباب وهو ضيق المجالات وقلبناها أمامه ، كما ألمعنا إلى سبب آخر هو تخوفه من طغيان الممتاز إذا أعجبته نفسه وأخرجه الغرور عن حده ، وهناك أسباب غير ذلك ، على أن كل الأسباب التي تحمل العبقري على تجنب الاستقامة على هذه الطريقة العادلة ، منها الضرورية الخارجة عن إرادة العبقري فلا اختيار له فيها ، ومنها الاختيارية التي تستلزمها السياسة العليا للمبدإ ، وفي هذه الأحوال لا يبدو العبقري في حيفه مختارا كل الاختيار ، بل مختارا كمضطر أشد الاضطرار

فالعبقري — وهو يعرف لكل ذي فضل فضله — قد يلجأ مثلا إلى تأخير الفاضل وتقديم المفضول اعتمادا على الثقة بالفاضل دون المفضول ، استرضاء لغرور المفضول أو ضعفه ، أو لأن الفاضل لا يضيره تقديم المفضول عليه ، أو لأن تقدم المفضول على الفاضل هو الذي يكفل للعمل الجمع بين كفايتهما معا ، أو لأنه يقي الناس الأخطار التي تتهددهم من تقديم الفاضل ، إذ يحمل عليهم فيض امتيازه دون ضابط يكبحه عن الطغيان إذا حاوله ، أو بق الناس الفتنة به ، فمن وراء فتنة الناس « بالصاحب » الفاضل دون المبدإ نسيانهم المبدأ الذي فتح إيمانهم به سبل النمو والازدهار لمواهبهم ، وبلغهم ما بلغوا من الفضل والكفاية ، وفي ذلك مافيه من خسران كل جهاد في سبيل استقرار المبدأ وانتشاره ، فإن الناس إذا تحولوا عن الإيمان بالمبدإ إلى الإيمان بتابعه الذي لم يكن فاضلا إلا به خسروا كل قوى الإيمان الدافعة التي استجاشها المبدأ في سرائرهم ، وفقدوا الإحساس بكل الصلات التي تربطهم بالوجود ، وما كانوا ليحسوا بها دون الإيمان بهذا المبدإ ، وبذلك يفسد إيمانهم ذاته وتفسد معه كل آثاره ، وفي ذلك فساد الفاضل الذي هو مناط فتنتهم ، وفسادهم هم لكل أسباب الفساد التي ذكرنا . وقد لا تفسد فتنة الناس بالفاضل فضله ، فلا يفسدون طول حياته مع فساد إيمانهم بالمبدإ ، ولكنهم خليقون بعد موته أن يخسروا أنفسهم بذهابه بعد أن خسروا في حياته إيمانهم بالمبدإ ، وخسروا كل قوى الدفع والتماسك التي ابتعثها الإيمان بالمبدإ في نفوسهم ، على أن خسران الإيمان بالمبدإ وخسران آثاره لا بد أن تظهر بعض عواقبه الوخيمة في حياة الفاضل ، ولا بد أن تظهر كلها بعد موته . هذا إلى أن عمر الفاضل — مهما يطل — قصير ، أو هو على الأقل غير قابل للامتداد كعمر لمبدإ . ومن أجل ذلك كان من المصلحين في كل زمان ومكان أن يثبتوا في نفوس الناس الإيمان بالمبادئ دون الأشخاص ولو كانوا هم مبادئها ، لأن أعمار الأشخاص قصيرة ، وأعمار المبادئ قابلة للامتداد ، ولقد أصاب أبو بكر إذ قال بعد موت النبي (ص) وهو يخطب الصحابة « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن

٣ - الحاج خواجة كمال الدين

(١٨٧٠ - ١٩٣٢)

للأستاذ أرسلان بوهدابوكر

بقلم الأستاذ على محمد سرطاوى

ذكريات محزنة

شاع الحزن فى البلاد الإسلامية عندما وصل النبأ الفزع - مات خواجة كمال الدين - والحلة العنيفة المركزة التى كانت عليه فى إنجلترا قد هدأت، وأخذ الناس فى جميع بلاد الإسلام. ينظرون إليه نظرة الإكبار والإجلال ، وكان الشعور بالحزن بالغا عليه أقصى مداه فى تلك البلاد . . . فتلقت أسرته وإمامة المسجد فى وكنج سيلا من الرسائل التى تفيض بالحزن العميق ، وتعبر عن الخسارة الفادحة التى أصابت المسلمين

أما فى لاهور ، فقد احتشد جم غفير من المسلمين فى قاعة الكلية الإسلامية فى الثامن من كانون الثانى ١٩٣٣ ، ورأس ذلك الاجتماع السر شهاب الدين صاحب ، رئيس الجمعية التشريعية فى البنجاب . وقد أجمع الخطباء فى ثنائهم على السياسة الحكيمة التى سار عليها فى وكنج ، وأشادوا بالأعمال التى أداها فى ديار الغرب للإسلام، وأهابوا بالناس أن يثابروا على العمل العظيم الذى بدأه فى بلاد الانجليز

وفى اليوم السابع عشر من آذار ١٩٣٣ جرى احتفال رائع بافتتاح المكتبة التذكارية وقاعة المطالعة الملحقة بها ، وقد أطلق عليها اسمه، وقد أقيم لها بناء ضخم ، آية فى الجمال ، وألحقتا بمسجد بيجام شاند بور تيرا فى البنغال . وقد كانت هذه المؤسسة الأولى من نوعها فى ذلك الوقت ، وسن لها نظام يشابه نظام وكنج للسير بموجبه فى أعمالها ومناهجها

وعقدت عشرات من الاجتماعات فى البلاد الإسلامية بعد عام ١٩٣٣ للاحتفال بذكرى وفاته ، ونشرت الصحف عشرات المقالات فى هذه الذكرى ، وقد جمع عدد كبير من هذه المقالات ، ووصفت تلك الاحتفالات فى عدد تذكارى من إسلامك ريفيو صدر

الله حى لا يموت »

وإذا كنا قد أشرنا قبل إلى أن الممتاز فى استعمال العبقرى على الطريقة الأولى لا بد له أن يكون « رقما » فى عملية جمع حسابية كبيرة أو صغيرة ، فما أحرانا أن نشير إلى أنه يبدو فى استعماله على الطريقة الثانية «رقما» فى عملية ضرب حسابية سواء أكان المضروب فيه كبيراً أم صغيراً ، فكل رقم فى المضروب فيه الرقم الممتاز يبدو أعظم من حقيقته ، وحسبنا لفهم ذلك أن نقارن بين حالين لجماعة من الجماعات سواء كانت أمة أم قبيلة أم حزبا أم نقابة أم جيشاً : حالها وقد ولى أمرها رئيس عاجز ، وحالها والمدبر لأمرها رئيس كفء ، إن الجماعة فى حالها الأولى تبدو مختلفة اختلافا كثيراً عنها فى الحالة الثانية ، وقد تبدو فى الحالتين وكأنها جماعتان مختلفتان كل الاختلاف ، لا جماعة واحدة فى حالين لا اختلاف فيهما عليها إلا استبدال رئيس فرد برئيس فرد . والبينات من التاريخ على ذلك ولاسيما تاريخ الحروب ، فكثيراً ما فشل جيش فى مهمته بعد أن حاول النجاح فيها طويلا، فلم يكن من الحاكم إلا أن استبدل قائداً بغيره ، فنجح هذا الجيش فى مهمته ، كأنما أمده الحاكم بالألوف من الجنود والمدات ولم يمده بقائد فرد . إذ يبدو كل مقاتل تحت لواء القائد الممتاز وكأنه شريك قائده فى امتيازه ، وله منه مثل ماله . فالقائد هنا ليس رقماً جمع إلى أرقام، بل رقما يضاعف الأرقام التى تسند به أضعافاً بمقدار امتيازه . ولا تقل البينات على ذلك فى تاريخ الإدارة عنها فى تاريخ الحروب .

وما أشبه استعمال العبقرى أصحابه على الطريقة الأولى بإحراقنا عدة أرطال من الفحم تحت قدر لإنضاج ما فيها من الطبيخ واستعمالنا المراد بكميات كبيرة فى أغراض كثيرة كهذا الغرض ، بينما هباءات من الفحم تفنى فى إنضاج ملء مئات من القدور لو فجرت قواها تفجيراً ذريا ، وكذلك لو استعملنا تفجير الذرات فى نحو هذا الغرض كتسيير القطر والسفن وإدارة الآلات المختلفة لأغنى عن الكميات الكبيرة التى نستعملها من المواد فى هذه الأغراض، معشارها أو أقل منه ، واستعمال العبقرى صحابته على الطريقة الثانية يشبه استعمالا ذريا كما أشرنا هنا ، فقد يغنى الممتاز وحده فى موضع امتيازه ما لا تغنى أمة كاملة من غير الممتازين .

للكلام بقية

محمد خليفة التونسى